الفصل الرابع

مقارنات : كلية مارلبورو ورايزنجهل

Marlborogh College and Risinghill

لقد شبهت تقسيم نظام تعليمنا الثانوى فى الفصل الأول من هذا الكتاب بطريق ثلاثى المجرى . وتحتل المدارس الانجليزية «الخاصة» المجرى الداخلى العلوى المحظوظ ولكن هذه المكانة المختارة لا تستثير سوى قليل من التعاطف أو الاهتمام الشعبى بالنسبة لما يستثيره الانقسام بين المجرى الأوسط « المدارس الأكاديمية » والمجرى الخارجى « المدارس الحديثة » لأن المدارس التى تعرف بالمدارس « الخاصة » Public منعزلة عن حياة الجمهور الحقيق وأبعد منالا عن أبناء هؤلاء الجماهير . ويذكرنى هذا الموقف دائما بالموقف بين اليعازر Lazarars والرجل الغنى :

« بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا » (انجيل لوقا اصحاح ١٦ عدد ٢٦) .

وثمة حادثتان فى الستينات من هذا القرن جعلتنا نحس بمدى عمق واتساع الهوة بين مدارس الأغنياء ومدارس الفقراء فى انجلترا فى الوقت الحاضر بحيث لا يتسنى عبورها . وعملتا أيضا على أن تثير بشدة أعمق القضايا المترتبة عن قبول مبدأ « المدرسة الشاملة » .

مدرسة ريزنجهل : Risinghill

فى عام ١٩٦٠ افتتحت فى انلنجتون Islington بمنطقة لندن London County Council مدرسة شاملة جديدة تبعد مسيرة بضعة دقائق عن

كنجس كروس Klugs Cross بل وأقرب من ذلك لبنتو نفيل جيل Pentonville Jail لقد كانت منطقة قذرة كئيبة . وكثير من منازلها كانت متآكلة بسبب الرطوبة والبلى وكان لهذا اثره على حياة الأسر غير المحظوظة التى لم يكن أمامها سوى أن تقطنها. لقد كانت منطقة تتسم بالعنف والدعارة بحيث لم يكن أطفالها يعرفون من الرجال الذين يشاركون كل بدوره سرير امهم هو الأب الحقيقى الذى انجبهم .

وكبر الأطفال فصاروا يمارسون العنف باعتباره شيئا طبيعيا . وكلما كان التعب يستولى على امهم أوعندما كانت تعجز عن اعالتهم فإنها كانت تأخذ فى صفعهم بطريقة آلية، وكان بقاؤهم فى مجاهل الشوارع يعنى انضمامهم إلى إحدى العصابات وكان على كل واحد منهم أن برهن على أنه بنفس الصلابة والعدوانية التى يتمتع بهما الولد الآخر أو البنت الأخرى . ولقد أحس بعض مدرسى التعليم الابتدائى الذين يعيشون خارج المنطقة وقد رأوا كثيرا من تلاميذهم كوحوش صغيرة يجب استئناسها — بأن العقوبة البدنية أداة ضرورية للضرب على ايديهم للمحافظة على النظام . وكان هناك مالا يقل عن تسع عشرة قومية، كما كان ربع السكان من غير الانجليز. وكان يلوح فوق كل شىء ظل بنتونفيل Pentonville ولكن أى أمل وأى إيمان بالمستقبل يمكن أن يكون لدى طفل خائف مضروب يعلم ان عـــبر ذلك الطريق قد تم شنق رجل . إنها تذكار دورى بالكراهية التى تشتعل بها قلوب الكبار ؟

لقد كانت المدرسة الجديدة بالتأكيد « مدرسة » حى . ولكنه « حى » خاص بطبقات مهضومة فقط لها مشكلات اجتماعية تفوق تلك المشكلات الموجودة بكركبى Kirkby . إنها لم تكن مدرسة شاملة بالمعنى الذى قامت عليه مدارس لندن التى تستقبل تلاميذ بقدرات متوازنة . فعندما فتحت أبوابها فى عام ١٩٦٠ لم يكن بها سوى ١ ٪ من الأطفال فى الدرجة العليا من

القدرة التحصيلية وكان حوالى ٥٠٪ منهم فى أحط مستوى تحصيلى . وليست هناك أية مدرسة طالبت بأكبر المساعدة فى توفير أحسن مدرسين وأحسن أبنية وبأجهزة وأدوات حظيت بدعم متعاطف من جانب السلطة التربوية المحلية ، مثل مدرسة ريزنجهل ، لقد قامت بخدمة ما كان واضحا أنه منطقة لها أولوية تربوية . قبل أن تقوم لجنة بلاودن Plouden Committee بنحت هذه العبارة القبيحة والصماء بمدة طويلة .

أما الرجل الذى عين ناظرا لهذه المدرسة فقد كان ميشيل دوين Michael Duane ضابط سابق بالجيش برتبة مأجور من الجناح اليسارى وكان قبل ذلك ناظرا لمدرستين « حديثتين » فى هرتفورد شير Hertfordshirea وصافوك Suffolk واصطدم بالعناصر المحافظة فى كلا المكانين فى اثناء اضطلاعه ببناء مدرستيه وفق خطوط تقدمية . وكان دوين صديقا لنيل A . S . neill الذى كان لافكاره وخبرته الترسلية أو التساهلية أثر كبير فى العالم . ولكن « نيل » كان متمتعا بالحرية (لولا المتاعب المالية) التى تتوافر لمدرسة مستقلة . ولكن هل كان من الممكن نقل اتجاه « نيل بنجاح إلى مدرسة تعولها وتتحكم فيها سلطة محلية حتى ولو كانت سلطة ذات شهرة تربوية عالية مثل منطقة اندن التعليمية .

وبالتأكيد فإن الكس بلوم Alex Bloom وهو يأخذ بنفس الاتجاه إلى حد بعيد قـــد حقق الشىء الكثير فى مدرسة سان جورج ان ذى ايست Sailnt George - in - the-East وهى مدرسة « حديثة » تقع فى شارع كابل Cable بستبنى Stepney . لكن كان ينظر إلى « بلوم » على اعتبار أنه شخص غريب الأطوار وكانت مدرسته على كل حال « مجرد » مدرسة ثانوية حديثة . أن السلوك الشاذ والتجارب الغريبة على أطفال قضى عليهم سلفا بأنهم فاشلون كان أحد الأشياء . ولكن فى رايزنجيل كانت الصورة الشاملة (وبجانبها شهرة

منطقة لندن التعليمية LCC) كانت هى نفسها محك اختبار . كان التجريب حريا بأن ينظر إليه بشكل اكثر تخوفا ، وكان هناك بالتأكيد مجال أقل للفشل .

وكان « دوين » وهو قوى فى مظهره وفى شخصيته على السواء يبدو ملائما جدا للاضطلاع بالمحاولة . وكان لديه النوع الحقيقى من الخبرة العملية المرتبطة بالواقع . لقد كان متحدثا طليقا وجلدا على العمل سمحا يأتى إليه الأطفال والآباء بسهولة ، وكان اجتماعيا يحسون بتعاطفه واستعداده لبذل كل ما لديه بغير تحفظ لمساعدتهم :

لقد كانت هذه خصائص جميلة ونادرة . فالنظار من هذا الطراز هم أناس ينبغى الثناء عليهم ودعم جهودهم . ولكن مامن ناظر تم كماله ، وثمة نقد واحد وجه ضد ميشيل دوين — سواء عن عدل أو عن غير عدل — هو أنه كان يتوقع من مدرسيه المساعدين أن يكونوا اكثر نضجا مما هم عليه فى الواقع ، وأكثر مما عليه معظمنا أيضا . ولقد أحس البعض أنه يتوقع منهم أن يكدوا فى هذا المضمار القاسى بكل قلوبهم كما فعل هو نفسه دون أن يستدعى ذلك كلمة أو تشجيعا منه بل وحتى بدون التوجيه المتوقع منه ، وكانوا يقولون « لنا الحق فى التوجيه » . وباختصار فبينما كان يمارس القيادة بتقديم المثل والقدوة كانوا يتوقعون منه قيادة تقليدية وخاب أملهم عندما لم يحصلوا عليها . ومن ثم بدأوا يحسون بعدم الطمأنينة ثم نشأ سوء التفاهم بين «دوين» وبعض أفراد هيئة التدريس (وليس جميعهم) .

وعندما يحدث موقف كهذا تكون المشكلة الحقيقية ليست هى البحث عن المصيب أو البحث عن المخطىء ، وإنما هى الموقف القائم ذاته . ففى ظل ظروف كهذه يخف التوتر عادة بمساعدة وتعاطف المسئولين داخل المدرسة وخارجها . ولكن للأسف يبدو أن دوين لم تواته فرصة كهذه . لقد وقف

وحده وكان الشخصية الرئيسية فيما كان بحق مأساة درامية كبيرة من تلك المآسى التى يجعلها عالم التربية شغله الشاغل لدراستها ولكنه نادرا ما يخلقها . ولكنى أنظر إلى المستقبل .

وعلى الرغم من نظرة ميشيل « دوين » المتطرفة ، فإن مدرسة رايزنجهل فتحت أبوابها على أسس تقليدية تماما بل ومحافظة . وكان هناك سبب وجيه لذلك . فمع أن المبانى كانت جديدة ، كانت المدرسة إلى حد كبير خليطا من عدد لا يقل عن أربع مدارس محلية ثانوية « حديثة » أو فنية غير مختلطة . وكذا وبعض المدرسين ذوى النظرة المحافظة وربما من المتضايقين بسبب الظروف القاسية التى اشتغلوا فى ظلها لمدة طويلة قد فرض عليهم عن غير رغبة التواجد فى موقف كان يتطلب رجالا ونساء يستحسن أن يكونوا على جانب من الخبرة ، ولكن قبل كل شىء يجب أن تكون لهم قلوب شابة وطموحة حتى يقبلوا تحديا مرعبا كذلك التحدى الذى يحتمل أن يجده الشخص فى أى مكان بانجلترا . الأطفال الكبار تضايقوا من الانتقال إلى المبنى الجديد ، وكان قيام الشجار بين عصابات الأولاد من مختلف المدارس مواكبا لميلاد رايزنجهيل . ولذا فقد بدأ دوين العمل بحذر . والواقع أن النظام المدرسى قد استمر على أسس تقليدية فيما بعد .

وصنف الأطفال فى مجموعات عريضة تبعاً للقدرة .. وكان هناك «ألفوات» أو عرفاء ، كما كانت هناك جوائز وأيام للخطابة . وكان هناك نظام للأسر من النوع الشائع بالمدارس الأخرى . بل كان هناك عقاب بدنى . وعلى الرغم من أن دوين نفسه كان يكره الضرب ، فإن منع الضرب لم يصدر أصلا عنه بل أتى نتيجة قرار هيئة التدريس بعدم الاستمرار فى الضرب ، ولم يكن دوين حاضراً ذلك الاجتماع . ولكن الذى فعله « دوين » وأثار دهشة وفزع المدرسين ، هو أنه أخبر التلاميذ بالقرار ، واعتقدوا أن هذا

سيجلب الفوضى . ولكن دوين من جهة أخرى زعم أن الأطفال بحاجة لمعرفة ذلك بشكل طبيعي وإلا فإنهم سيكونون عرضة لتهديد ليس له أساس ويكون ذلك كذبة صارخة .

أما عما حدث بعد ذلك فقد عرضت له ليلى برج Leila Berg بتفصيل كامل فى بحث سوف يعتبر فى المستقبل واحداً من أغرب البحوث ، ولكنه فى نفس الوقت من أهم البحوث القيمة التى أجريت فى تاريخ التربية الإنجليزية على الإطلاق [1] . وكتابها برغم ما فيه من حماس ومشايعة يعتبر بمثابة سجل مصنف بإتقان شديد لاستقصائها عن الموضوع برمته. أضف إلى هذا أنها كاتبة تمتاز بالقدرة على الإحاطة بالجو الذى كان سائداً ، وعلى رسم الشخصيات كما أن لديها حاسة الحتمية التراجيدية للقصة التى تؤرخ لها. وبدأت أقدر مدى اختلاف هذا العمل فى نوعه عن الكلام الطنان الذى اعتدنا نحن المشتغلين بالتربية أن نفرضه على زملائنا .

وخلال السنوات الثلاث الأولى من عمر رايزنجهل القصير استطاعت أن تحرز بعض النجاح برغم الصعاب المستمرة التى واجهتها . فى عام ١٩٦٠ نجح خمسة من تلاميذها فى المواد فى الشهادة الثانوية Gce المستوى العادى . وفى عام ١٩٦٤ نجح ٤٢ تلميذاً فى عدد من المواد يتراوح بين مادة وست مواد فى المستوى العادى ، والتحق طالبان (أحدهما إنجليزى والآخر تركى قبرصى) بالجامعات . وعندما بدأت المدرسة فى عام ١٩٦٠ كان هناك ٩٨ طفلا تحت المراقبة لسوء السلوك ، وفى عام ١٩٦٤ كان عدد هؤلاء تسعة فقط .

ومن بين الأحداث الجديرة بأن تذكر تلك المسرحية العظيمة المؤثرة

---

(1) Risinghill : Death of a Comprehensive School (Penguin, 1968 .

التى كتبت عنها جريدة إيزلنجتون Islington Gazette قائلة :

إن الألاعيب البالية ليست من أجل رايزنجهيل . وإنما لرايزنجهيل نجاحا فى أحداث الأثر بفضل ما استعانت به من ملابس فاخرة شديدة تماما بملابس الملك هيرودوس والملوك الثلاثة الذين أتوا من المشرق . ولريزنجهيل تأثير موسيقاها الفاخرة المجلجلة وماصاحبها من كورال عظيم . لريزنجهل التأثير الناجم عن تعدد أجناس الممثلين مما أضفى السناء الشرقى والصدق الحقيقى على هذه القصص المثيرة للغاية . لقد أخذت أبكى فى صمت . وقد غمرنى الانفعال لدى مغادرتى شارع رايزنجهيل سائراً فى ليلة قاسية البرد من ليالى شهر ديسمبر منحدراً إلى شايل ماركت Chapal Market بعد أن شاهدت أحسن مسرحية وطنية كان لى شرف وحظ مشاهدتها .

والتحية أيضاً لريزنجهيل (كما تضيف ليلى برج) لأنها استطاعت أن تحقق طفولة حقيقية لأبنائها .

لقد كان للمدرسة فى عام ١٩٦٤ « ألفة » من الأولاد من غرب الهند « وألفة » يونانية قبرصية من البنات. وفى الوقت الذى كان اليونان والأتراك فيه يذبحون بعضهم بعضاً فى قبرص، كان أبناء هاتين القوميتين يحيون معاً فى سعادة بريزانجيل . ولقد احتج الملحق الثقافى للمفوضية السامية القبرصية فى أوائل عام ١٩٦٥ ضد الاقتراح بغلق المدرسة وقال : « إن ريزنجهيل قد نجحت فى أن تفعل شيئاً لا تستطيع الأمم المتحدة القيام به » .

وأنا شخصياً أذكر فى داخل المدرسة بوجه خاص ذلك العمل الخلاق فى نطاق الفن والانهماك الكامل لملك الأطفال « King of the Teds » فى عمله هناك . وأنى لأذكر أيضاً الطريقة الطبيعية التى كانت تشيع فيها الصداقة والطمأنينة التى كان يدخل بها الأطفال إلى مكتب دوين ، كما كانوا يفعلون مع بلوم Bloom فى ستبنى Stebney وهى الطريقة التى يجدر أن يعاملوا بها

أباً محبوباً : أنهم كانوا يعتبرون الترحيب بهم فى الدخول إليه أمراً عاديا . إن الوصية القائلة « دعوا الأولاد يأتون إلى ولا تمنعوهم » قد نسيها كثير جداً من نظار المدارس إذ غطت عليها المهام الإدارية الروتينية .

وباءت كل الجهود بالفشل إذ وجد « دوين » نفسه فى حالة خلاف مع مجموعة كبيرة من هيئة التدريس فى مدرسة محفوفة بالمشكلات الناجمة عن النقص فى عدد المدرسين (وبخاصة المدرسين المناسبين) وعن تجمع المبانى بطريقة رديئة التخطيط ، وعن الصعاب الشخصية التى كان محتوماً أى يحضرها كثير من الأطفال معهم من بيوتهم . وطالبت تلك المجموعة من المدرسين بالمحافظة على الطرائق التقليدية لاسيما فرض النظام والسلوك المقبول المألوف لهم . ووجد دوين الذى لم يستطع خيانة ضميره أو الأطفال الذين صاروا يثقون فيه أن من المستحيل أن يذعن لمثل هذه المطالب . وكان مفتشه المحلى غير متجاوب معه ، ويبدو أن سلطات التعليم المحلية قد أحست بالقلق بسبب الشائعات التى أخذت فى الانتشار وخشيت من السمعة الرديئة التى قد تلحق المدارس الشاملة ومجلس مدينة لندن Lcc على السواء .

وعند هذا الحد لم يكن هناك سوى طريق واحد لإنقاذ الموقف هو اتخاذ خطوة حاسمة من جانب سلطات التعليم المحلية ، وكان الموقف بحاجة — وهو ما كان يحق لمشيل دوين بكل تأكيد أن يتوقعه من فتح المدرسة — إلى: أولا — لدعم الشعبي المستمر الذى كان دوين يحاول الحصول عليه مع مساندة من جانب السلطات التعليمية . ثانيا — وضع خطة مدروسة لجذب المدرسين القديرين والمتحمسين لشغل الوظائف الخالية حال وجودها (وهو أمر غير مستحيل مادام المدرسون يعرفون أن السلطة تساند التجربة بحزم) . وثالثا — توفير الطمأنينة والدعم المستمرين للناظر فى مواجهة الصعاب التى كان يحتمل وقوعها .

وإنى أعتقد أن سياسة كهذه كانت تساعد على انقاذ رايزنجهل بل وتحافظ على إيمان الآباء والأطفال الذين علقوا أملا عريضا على ما تقدمه المدرسة الشاملة الجديدة ، بل وكانت تعمل أيضا على تقوية سمعة منطقة لندن التعليمية ذاتها إلى حد بعيد . ذلك أن رايزنجهل كانت حالة للاختبار . فلو أمكن نجاح المدرسة الشاملة بها إذن يمكن أن تنجح فى أى مكان آخر .

ولكن للأسف ظهر أن نظرة مجلس مدينة لندن Lcc كانت عميقة محافظة تخشى السماح باتخاذ موقف كهذا . ربما ارتكب « دوين » أخطاء فى سياسته . ولكن من من الرواد الأوائل لا يقع فى أخطاء ؟ على أن أهدافه كانت صحيحة بلا ريب ، كما كانت مساهمته الشخصية فى كثير الاتجاهات عظيمة . لقد كان بحاجة إلى مساندة لا إلى معارضة . وكانت مواهبه العظيمة كنزاً لأية سلطة تعليمية تؤمن بحق فيما كان يحاول أن يفعل . وليس بوسعى فى خضم الاضطراب العظيم الناجم عن التقارير والآراء المتصارعة إلا أن أسجل استنتاجاتى الشخصية . لقد كان شعورى الشخصى - كما هو أيضا الآن - هو الحزن الشديد . لم يكن هناك أوغاد بل إنه فى أزمات كهذه تعمل « العواطف على حياكة المؤامرة » ، وعليه فقد أحال بعض الرجال التافهين انتصاراً كبيراً كان متوقعا إلى كارثة . وافتقد مارد مجلس مدينة لندن القدرة على تكييف قامة جسمه . وفى عام ١٩٦٥ أغلقت مدرسة رايزنجهل بناء على الاحتجاج بالنقص فى عدد التلاميذ ، وهى حجة لقيت قبولا واسع النطاق (برغم المنكرين لها) ، وبرغم الاحتجاجات الشديدة من جانب كثير من الآباء .

وكان على الأبطال المحليين لحركة العمال الديموقراطية الذين ظلوا منتظرين مدة طويلة . وعلى من لقبوا أنفسهم بقادة التربية التقدمية أن يقتفوا أثر « ميشيل دوين » فى طريقه الشاق بعد أن أصبح الجو مناسبا ، واتت الظروف لذلك فى الانتخابات بعد ثلاث سنوات فقط من غلق المدرسة .

ولم تكن رايزنجهل مأساة فقط لناظرها وأطفالها وللسلطة التعليمية بداخل لندن Inner Lonpon Epucatlon Authority (التى خلفت مجلس مدينة لندن Lce) بل كانت مأساة لانجلترا . ذلك أن تصرف لندن كان إشارة للسلطات الأخرى بأن تتوقف عن إحراز أى تقدم ، وبتأجيل البحث العميق الهادف إلى تناول المشكلات الاجتماعية والتربوية بالمناطق الفقيرة المتخلفة . ومثل هذا التناول لا يمكن أن يتم بمجرد إعادة التنظيم . فالمدرسة الشاملة يمكن أن تكون تسلطية كأية مدرسة أكاديمية أو « حديثة » نعم إن المدرسة الشاملة التسلطية قد تؤدى إلى إزالة إيجابية للأفكار الخاطئة عن الإصلاح نظرا لأن الناس يتوقعون منها أشياء أفضل .

ومع هذا لم تكن تلك المأساة غير قابلة لتخفيف حدتها . فنظرا لأن رايزنجهل أصبحت قضية مشهورة Gause Célébre فإن الموضوعات المتنازع عليها طرحت للمناقشة على نطاق أوسع أكثر مما كان متوقعا لها . ولا يستطيع الطلاب المعلمون مثلا أن يغضوا عن مواجهة هذه القضايا — ومهما كانت النتائج التى ينتهون إليها، فإنهم يعرفون أن المواقف والممارسات التى سوف يأخذون بها أنفسهم فى المدرسة هى على جانب حيوى من الأهمية لمجتمعنا . إن الوضع النظرى بالربط بين البيت والمدرسة كذلك ومراجعة أفكارنا فيما يتعلق بدور المدرس وسلطته ولاعادة وضع الحوافز القديمة فى البوتقة المنصهرة يصبح له أهمية ومعنى جديد فى حالة ريزنجهل .

ولا شك أن الاستشهاد فى سبيل المبدأ يكون فى بعض الأحيان أفضل ضمان للبقاء فى عقول الناس .

وفى نفس السنة التى أغلقت فيها رايزنجهل بدأت تجربة من طبيعة مختلفة جدا .

المدارس « الخاصة » The Public » Schools « :

على الرغم من أن مستقبل المدارس « الخاصة » لم يثر بعد مشاعر قوية لدى الشعب ، فقد شاهد كثير من نظار هذه المدارس نمو المدارس الشاملة فى نظام التعليم الحكومى باهتمام بل وعناية فى بعض الأحيان . وكان المستر كروسلاند Mr Crosland بصدد تشكيل لجنة المدارس الخاصة ، لكى تقدم توصياتها عن أحسن طريقة لتحقيق التكامل بين المدارس الخاصة وبين نظام التعليم الحكومى » . ويبدو أن الوقت قد حان لإعادة تقدير قيمة تلك المدارس .

وعندما يسمع رجل الشارع أو يقرأ عن المدارس « الخاصة » فإنه قد يفكر فى عدد قليل من الأسماء المشهورة مثل ايتون ETON وهارو Harrow وونشستر Wlnchester وشخصية مثل ارنولد ناظر مدرسة رجبى Arnold Of Rugby أو فى قصة « Tom Brown's Schooldays » . وقد يذكر بعض الأفكار التى كادت تنسى مثل قيام التلميذ الصغير بخدمة تلميذ أكبر منه (fagging) وألوان المزاج والمداعبات المتطلبة من التلاميذ Dormitory rags والالتزام بقواعد المباريات القاسية التى تتعلق أصولها بعمليات مثل « المنازلة » والتعرض للضوء الخاطف البصر « واتباع الوصية الحادية عشرة القائلة : « أفرغ كامل قوتك فى اللعب . . افرغ كامل قوتك فى اللعب . . واستمر فى اللعب بالمباراة » . انها صورة . غامضة ومشوشة ، ولكنها فى نفس الوقت صورة رومانسية إذ أن قصص الأولاد حول المدرسة قد تركزت إلى حد بعيد فى حياة الإقامة الداخلية بالمدرسة .

والشىء المؤكد عن المدارس « الخاصة » « Public » أنها ليست مدارس الشعب . ولا يوجد تعريف معين لهذه المدارس ، من المدارس النهارية والمدارس الداخلية الصغيرة سواء أكانت مستقلة أم معانة بوزارة التربية

والسلطات المحلية تطلق على نفسها اسم « Public » School .

ولكن المدارس الخاصة Public كما هى صورتها فى عقول الناس مهما كانت غامضة عند استخدامهم لهذا اللفظ ، هى فى الواقع المدارس المستقلة الداخلية الكبيرة الخاصة بالأولاد والتى يبلغ عددها حوالى ثمانين مدرسة مثلت فى مؤتمر نظار المدارس Headmaster,s Conference ويمكن تقسيم هذه المدارس بوجه عام إلى ثلاث فئات هى :

(ا) المدارس الضخمة المشهورة التى أسست منذ مدة طويلة مثل ونشستر Winchester وايتون Eton ووستمنستر WesTminister .

(ب) المدارس الأكاديمية التى انتشرت فى القرنين الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وكانت تستهدف ما هو أبعد من مجرد اشباع حاجات البيئة المحلية وتضم هذه الفئة هارو Harrow ورجبى Rugby وشروسبرى Shrewsbury وربتون Repton وابنجهام Uppingham .

(حـ) المدارس التى كانت قد أنشئت فى منتصف القرن التاسع عشر لتقدم لأبناء الأغنياء من رجال الصناعة نفس التربية الراقية المتوافرة لأبناء أصحاب الأرض الأعيان الذين يتمتعون بها (أو يصح أن أقول يطيقونها) بالمدارس « الخاصة » القائمة . وتضم هـــذه المؤسسات الجديدة مدرسة مارلبورو Marlbororough (أنشئت عام ١٨٤٣) وبراد فيلد Bradfield (١٨٥٠) وولنجتون Wellington (١٨٥٢) وكليفتون Clifton (١٨٦٢) .

والمجموعتان الأوليان من المدارس تقدم معلومات كثيرة أمام المترجم لها. ذلك أن شهرة كل واحدة منها قد تحددت برمتها تقريبا فى ضوء شخصية ناظرها . فلقد جعل صمويل بتلر Samuel Butler الذى عين ناظرا لمدرسة شروسبرى فى عام (١٧٩٨) تحصيل العلم الهدف الأول من مدرسته تماما كما فعل توماس ارنولد Thomas Arnold الذى صار ناظرا لرجبى

فى عام ١٨٣٨ بتأكيده على الطابع الخلقى ومسئولية الأولاد الكبار . وفيما بعد نجد أن ثرنج Thring ناظر أبنجهام قد أخذ يؤكد حق كل ولد فى أن يستقل وحده فى دراسة خاصة به ، كما أخذ يؤكد أهمية الموسيقى والفن فى التربية . واتبع ساندرسون Sanderson أفكار وآراء ثرنج فى مدرسة أوندل Oundle فيما بين عامى (١٨٩٢ و١٩٢٢) وعمل اصلاحات شاملة فى المنهج كإدخال الورش الضخمة والطريقة الحديثة فى دراسة العلوم . على أن جميع النظار لم يكونوا بالضرورة رجالا عظماء . فلقد عمد الدكتور كيت Dr Keate الذى كان ناظرا لمدرسة ايتون فيما بين عامى (١٨٠٩ و ١٨٣٤) إلى حبس حوالى ٢٠٠ تلميذ من الفصول المتقدمة بفصل واحد . وفى ذات مرة قام هذا الرجل المتشبث بالنظام والسريع الغضب بجلد تلاميذ فصل يقوم بتقويتهم اعتقادا منه أنهم مذنبون وقد أرسلوا اليه لمعاقبتهم .

كانت الرئاسة وخدمة الصغير للكبير من الملامح المألوفة تماما فى حياة المدرسة « الخاصة » . ومع هذا فإن المدارس الجديدة التى لم يكن بها تقاليد ضارة قد تلدت المدارس القديمة بل وقدمت مواقف لا تقل ردامة عما كان يحدث بها . كتب السير سيرل نوروود Sir Cyril Norwood فى عام ١٩٢٩ قائلا :

« لنفكر لحظة فى مارلبورو التى كانت مملوءة بالأولاد فى عام (١٨٤٣) وكان معظمهم وافدين من مدارس القساوسة بالأقاليم . وفى عام (١٨٥٠) أخذت هذه المدرسة أحد الأولاد الجدد وهو طفل فى الثامنة من عمره ثم ربط إلى مقعد بالمدرسة العليا Upper School حيث كان هناك حشد من الأولاد وكوى بالنار فى حضورهم باستخدام مسعر ملتهب إلى درجة الاحمرار بعد تثبيت ساعده بإحكام . وبعد مرور ١٧ عاما شاهدت « الندبة » مكان الكى وكان يمتد من الساعد حتى الرسغ . وعلى حـــد تذكر ذلك

الشخص الضحية لم تكن هناك عقوبة على الرغم من أنه كان عليه أن يقضى ثلاثة أسابيع بالمستشفى.[1]

وبمرور السنوات أخذت المدارس « الخاصة » فى التغير . قليلا . ففى عام ١٩١٧ قام إليك ووه Alugh Waugh بنشر كتابه « مذكرات الشباب » « The Loom of Youth » الذى قام بكتابة معظمه بينما كان ما يزال تلميذا بالمدرسة. ولقد كانت هذه القصة الخالدة بمثابة اتهام عنيف موجه ضد الحياة بالمدرسة الداخلية فى ذلك الوقت .

وعاد الاهتمام بالمدارس « الخاصة » فى الظهور فى أوائل الأربعينات من هذا القرن . ولقد كان من النتائج المترتبة على حرب ٣٩ — ١٩٤٥ الاهتمام الكبير بالتربية وبوجه خاص بتوفير فرص تربوية متكافئة للجميع . وقد أدى هذا إلى سلسلة من الانتقادات ضد المدارس « الخاصة » باعتبار أنها موطن الامتيازات ، وباعتبار أنها أماكن يتلقى فيها أبناء الأغنياء من الآباء تربية أرقى فى كل شىء عما يمكن أن توفره المدارس المحلية . ولقد أراد الكثيرون جعل المدارس « الخاصة » على صلة أوثق بالنظام التعليمى القومى بحيث تصبح التربية الممتازة التى تقـــدمها ميسورة لأطفال الآباء الذين لا يقدرون على مصروفاتها .

وكان هذا المطلب هو الدافع إلى تعيين لجنة فملنج Flemig Committee التى نشرت تقريرها فى عام ١٩٤٤ عن المدارس « الخاصة » وعلاقتها بالنظام التعليمى العام . أوصى هذا التقرير وباختصار بأن على المدارس « الخاصة » أن تخصص ٢٥ ٪ من أماكن القبول بها كل عام للأولاد الذين تلقوا تعليمهم بالمدارس الابتدائية الخاضعة للنظام القومى . ويتم اختيار هؤلاء

---

(1) The English Tradition in Education (1929) quoted in Lamb, The English at School. (Allen & Wnwin), p 170.

الأولاد بواسطة لجان اختبار شخصى محلية ويمنحون منحاً مالية عن طريق مجلس التعليم Board of Education كما كان وقتئذ (الآن وزارة التربية) بقصد مساعدتهم وتغطية مصروفاتهم المدرسية . ولكن لم يؤخذ بتوصيات لجنة فلنج مطلقاً على الرغم من تشجيع سلطات التعليم المحلية على عمل ترتيباتها الخاصة مع المدارس «الخاصة» المجاورة . فبمقتضى قانون عام ١٩٤٤ أصبح من واجب السلطات التعليمية المحلية أن :

« تعنى بضرورة توفير الإقامة الداخلية الكاملة سواء بالمدارس الداخلية وغيرها للتلاميذ الذين يرغب آباؤهم أو السلطة المحلية فى الحاقهم بهذا النوع من المدارس .

وعلى كل حال فمع أن قلة من سلطات محلية قد عملت مثل هذه الترتيبات مع المدارس « الخاصة » فى منطقتها أو ما قاربها ، لم تتخذ معظم السلطات أية خطوة عملية . ويمكن تلخيص أسباب ذلك فيما يلى :

أولا — النفقات. فالمصروفات الدراسية فى مثل هذه المدارس الداخلية تتراوح الآن بين ٣٥٠ جنيها وبين ما يزيد عن ٦٠٠ جنيه فى السنة .

ثانياً — أن المدارس الأكاديمية المحلية لا تريد أن تحرم من أفضل أولاد منطقتها .

ثالثاً — يحتج المعارضون السياسيون بأن دعم المدارس « الخاصة » وانعاشها بأحسن العناصر من المدارس المعانة يكون أشبه بنقل الدم إلى حيوان طفيلى . إن ذلك يخلد التمييز الطبقى ولا يعمل على إزالته .

رابعاً — يشعر بعض المعارضين بأن التربية بالمدارسة الخاصة رديئة أساساً . نعم هناك بعض المزايا جديرة بالتقدير مثل اتساع المساحة وعظمة التجهيزات والتدريس وتهيئة الفرصة لمواصلة التثقيف . ولكن ليس هناك ما يبرز عدم توافر كل هذه الأشياء فى مدرسة نهارية عادية جيدة . بيد

أنه فى مقابل تلك المزايا هناك كثير من الصفات الأخرى التى تعد « لعنة » فى نظر المربين « التقدميين » وذلك مثل تحكم الأولاد الكبار فى الأولاد الصغار وما يصاحب ذلك غالبا من قدرة على ضربهم . ثم هناك الحوافز المتعلقة بالتنافس والعقوبة التى ما يزال يعتبرها الرجل العادى من المدرسة « الخاصة » الوسائل الناجعة الوحيدة لا فى المدرسة فحسب بل وفى المجتمع ككل . ثم هناك التمسك بعدم الاختلاط أى بالمجتمع الرهبانى بما تشيع فيه من أفكار وممارسات غريبة عن الجنس وما قد يترتب على ذلك من نتائج انفعالية صعبة فى الغالب لدى الأولاد فى حياتهم ككبار .

وحتى « إليك ووخ » Alec Waugh برغم جميع نقداته التفصيلية لم يستطع إدراك أن طبيعة النظام التعليمى نفسه هى التى أنتجت الأشياء التى أرهبته . لقد كتب الكلمات التالية فى عام ١٩٢٢ ولكن رجال المدرسة « الخاصة » سيقولون نفس الشىء فى عام ١٩٧٢ :

« إن أى ناقد للمدارس الخاصة يجد نفسه مسوقا للتو إلى موقف زائف فإذا ما تنفس أى شخص بكلمة ضدها اليوم ، فإنه يعتبر ثوريا ، ومن الناحية السياسية اشتراكيا ، وأنه يرغب فى أن يحل التنافس محل التعاون وأنه نذير لتدبير « أحمر » . وهذا بالطبع بعيد كل البعد عن الحقيقة . ذلك أن معظم الذين هاجموا تلك المدارس ليسوا اشتراكيين بالمرة فهم يعتبرون الأقلية المستنيرة الشكل الأمثل للحكومة . وما من أحد يريد القضاء على المدارس الخاصة . وما من أحد بلغ به الغباء إلى هذا الحد .

ومرة أخرى :

« إنها لحقيقة مؤسفة لكنها أكيدة أن الناس لا يعملون إلا تحت تأثير الرشوة أو التهديد » .

ومنذ وقت قريب كان هناك نقد من داخل المدارس « الخاصة » نفسها .

فالدراسة التى قام بها اثنان من خريجى ويكهام Wykeham هما بيشوب Bishop وويلكنسون Wilkinson [1]. ولعلها أعمق دراسة أشارت إلى بعض العوامل مثل إعاقة التحرك الاجتماعى والانحراف إلى دوامة التنافس للحصول على الوظائف العليا . وربما لا يكون مستغربا أن تعلم أن رئيس وزراء المحافظين ستانلى بولدوين Stanley Baldwin قال لرابطة هارو Harrow Association فى عام ١٩٢٣ « إنى أذكر كيف كان هناك فى حكومات سابقة أربعة أو خمسة وزراء من خريجى مدرسة هارو ، ولقد عزمت على أن أعين ستة » فأهم من هذا أنه بعد مرور جيل كان رئيس الوزراء العمالى كليمنت اتلى Clement Attlee واقعا تحت نفس التأثير، ويتضح هذا فى قوله « إذا تساوت كل الجوانب فلا أجد ما يمنعنى من اختيار شخص من مدرستى (مدرسة هايلى برى Hailey-bury) ... وإنى اختار جوفرى فريتاس Geoffrey Freitas » .

ويصور كل من بيشوب وويلكنسون فى أحد أوصافهم « لوينشستر » القيمة عالما بعيدا تماما عن الحياة المنحطة التى يحياها أهل رايزنجهل :

« لابد للشخص الغريب المتأمل أن يجد نفسه مذهولا ازاء كل ذلك الثراء فى الأرض وفى المبانى التى لايحيا فيه سوى خمسمائة ولد . فهناك ملعب رياضى وملعب رياضى آخر ، وهناك كنيسة خاصة على مرتفع . . . وثمة عدد كبير من الحوانط والبوابات والمشايات والمجازات المقنطرة ولكل منها اسمه التاريخى الذى يجب على القادم الجديد تعلمه . إنه مكان مفعم بالجمال والجو الساحر لكنه جمال وجو العصور الوسطى أساسا . أنه يربط الرجل السهل القياد بمجتمع اقطاعى ضخم » .

---

(1) Winchester and the Public School Elite (Faber & Faber, 1967).

وبرغم ما تتسم به المدرسة من جمال فإن « بيشوب » و « ويلكنسون » يتنقدان عدم صلاحية هذا الجو الرهبانى للاعداد للحياة الصالحة ، والنمو الانفعالى الناضج السعيد . « من الناحية التاريخية ، لم يكن الهدف الأول للمدارس الخاصة انتاج الأزواج والآباء . بل كان توفير عدد من القادة للحكومات والمهن وأخيرا الشركات » .

وربما تكون هناك العقدة التى يكمن فيها قلقنا الزائد حول المدارس « الخاصة » . إن مجتمعاً يقوده رجال كرسوا أنفسهم من أجل وظائفهم على حساب الاتزان الانفعالى والعلاقات الشخصية المستقرة — أو على حد العبارة الدقيقة لنيل A. S. Neill أولئك الذين يضعون الرأس قبل القلب — مما سوف يعكس حتما تلك القيم الزائفة . وإذا كانت تلك السمعة الرديئة لمدارس انجلترا « الخاصة » فإن القليلين يجرءون على سؤال أنفسهم (وليس بصوت مرتفع مفتوح) سؤالا هو فى الواقع السؤال الأساسى : « هل هذه مدارس صالحة حقا ؟ وهل مبادئها وما تسير عليه يمكن أن يكون مقبولا إذا ما طبق على النظام التعليمى للدولة وذاع بالمدارس المحلية التى لا تتمتع بنفس المزايا ؟ »

تجربة مارلبورو :

فى عام ١٩٦١ عين ماعهد مارلبورو ناظرا جديدا هو جون دانسى John Dancy . كان دانسى تلميذا ثم مدرسا فى معهد ونشستر Winchester ثم صار فيما بعد ناظرا لمعهد لانسنج Lancing . لقد كان على وعى دقيق بالوضع الاجتماعى المتغير أكثر مما كان يعرف بعض معاصريه ، وكان مشهورا بالآراء الحرة غير المتطرفة ، وعندما قام ميشيل يونج Michael Young وبيتر ولموت Peter Wilmott بعمل مسح فى منطقة سويندون Swindon اتضح

ان ثلث الآباء ممن لديهم أولاد فى الخامسة عشرة قد يفضلون إقامتهم بمدرسة مثل مدرسة مارلبورو ، وأن أربعة أخماس هؤلاء يكونون عندئذ على استعداد للاسهام ببعض نفقات التعليم . ولقد رحب دانسى بإمكان القيام بتجربة بهدف التكامل . فقدم المال من جانب سويندون ومن جانب وزارة التربية ومن غير ذلك من المصادر . والتحق بالمعهد فى سبتمبر عام ١٩٦٥ واحد وعشرون ولدا سبق نجاحهم فى المستوى العادى للشهادة الثانوية بالمدارس المحلية فى سويندون وويلتشير Wiltshire وانضموا هناك إلى ٨٠٠ ولد هم أولاد معهد مارلبورو الذين كانوا قـــد التحقوا بالمدرسة بالطبع بالطريقة العادية .

وقد غطيت التجربة منذ البداية بوحدة بحث . وكان الدكتور رويستون لامبرت Royston Lambert هو رئيس الوحدة ، وعرضت سوزان ستاج Susan Stagg وهى واحدة من مساعديه لأهداف التجربة وسيرها ونتائجها فى بحث يعتبر نموذجا للتقارير الموضوعة بله للتقارير الواضحة المعالم .(١)

ومن بين « أولاد سويندون » — وهى التسمية التى اطلقت على المجموعة الجديدة كان هناك إحدى عشرة من المدارس الأكاديمية فى سويندون، وعشر من المدارس « الحديثة » فى سويندون وتشيبنهام Chippenham ومالمسبرى Malmesbry . وجميعهم على كل حال كانوا قد نجحوا فى أربع مواد على الأقل فى امتحانات المستوى العادى وكانوا جميعا فى حوالى السادسة عشرة من العمر .

وكانت بشائر التكامل الناجح حسنة بدرجة معقولة هى بالتأكيد أفضل بكثير مما لو كان النقل قد فرض بالإكراه بغير رغبة المدارس أو التلاميذ .

---

(1) Paper Three, « Integration : a Pilot Scheme ; in New wine in Old Bottles! (Occasional Papers on social Administration no. 28, Bell, 1668.

وواضح أن تقديرات يونج — ويلموت young - Wflmott كانت متفائلة أكثر من اللازم : فعندما اتى وقت الجد لم يعد معظم الأولاد بسويندون يرغبون فى مجرد السماع بأنهم ذاهبون إلى المعهد بغض النظر عما يرتئيه آباؤهم . ولكن الواحد والعشرين ولدا الذين تم اختيارهم لم تكن تربطهم وشائج متينة بالبيئة المحلية خلافا للغالبية . وكانوا بالإضافة إلى هذا طموحين للانخراط فى الدنيا ، ومقتنعين بأن التدريس والمستوى الأكاديمى بالكلية سيكون أفضل بكثير عما هو فى مدارسهم المحلية . وعرفوا نظرياً أن الظروف سوف تكون مختلفة فى أمور كثيرة عن الظروف التى ألفوها ، ولكنهم كانوا على استعداد للتوافق . لقد أرادوا للتجربة النجاح . وكانت حقاً تجربة حيوية ينبغى أن تنجح بعد أن كرسوا لها سنتين من أهم سنوات حياتهم .

وفى المعهد أيضاً بذلت العناية لتمهيد الطريق للعمل . وعلم المدرسون والأولاد بما كان يجرى وشجعوا على أن يكونوا متفهمين ومساندين للتجربة وقسم أولاد « سويندون » على خمس أسر كان روادها من المدرسين المهتمين بالتجربة . وثمة قواعد معينة خففت من أجل مصلحتهم — مثل السماح لهم بالذهاب إلى بيوتهم يومى السبت والأحد بعد الظهر (دون المبيت هناك) .

ولكن على الرغم من هذه العوامل المبشرة (كما تقول مس ستاج والدكتور لا مبرت) :

« فإنه فى نهاية السنتين أصبح ثلاثة أولاد بؤرة المشكلات السلوكية المستمرة ، وأعلن واحد من أكثر رواد الأسر من المدرسين تحمسا للتجربة أنه لا يرغب فى أن ينضم أولاد من « نظام التكامل » إلى أسرته مرة أخرى إلا إذا توافرت ضمانات أكثر ، وذلك لأن ثلاثة من هؤلاء الأولاد كانت تنتابهم حالة من وقت لآخر شخصها طبيب المدرسة بأنها « أعراض توتر »

كما أن غالبيتهم برغم حسن توافقهم ومشاركتهم فى النشاط ورضاهم ، كانوا يصطرعون بعض القيم الأساسية التى تأخذ بها المدرسة « الخاصة » ويقوم عليها بنيانها .

فما الخطأ الذى وقع ؟

على نحو ما لم يحدث خطأ. إن ما حدث كان صداما بين نوعين مختلفين من الثقافات ، لم يستطع أصحاب كل نوع منها أن يفهم الآخر إلا بطريقة غامضة . والدرس الذى نتعلمه هنا هو أن الحماسة وحدها لا تكفى : فالمصلحون بحاجة أيضا إلى الفهم ، أعنى فهما نابعاً من الخبرة الشخصية . بأن أساتذة وأولاد مارلبورو اكانوا ينتمون إلى عالم بعيد عن العالم الذى كان ينتمى إليه أولاد سويندون . وظهرت اتجاهاتهم اللاشعورية بوضوح فى مواقف دقيقة كاستخدام بعض أولاد مارلبورو لفظ « أجلاف » Yokels « وسفلة » Psoler عند كلامهم عن سكان المنطقة . ولم يكن معظم مدرسى المدرسة « الخاصة » يوما ما فى مدرسة غير المدارس « الخاصة » سواء عندما كانوا تلاميذ أو مدرسين. وكذا فإن معظم مدرسى الأسر لم يقوموا أبداً بالتدريس خارج مدرستهم الحالية .

وكان أولاد سويندون يضيقون بعنف من الصورة الوهمية التى كانوا قد وضعوها فى أذهانهم عن أسباب الرفاهية والراحة بالمعهد . وفى بداية الأمر لم يكن سوى اثنين من هؤلاء الأولاد البالغين ست عشرة سنة يشترك الواحد منهم مع ولد آخر فى حجرة الاستذكار ، أما الباقون فكان عليهم أن يتحملوا العمل فى ظروف اسبرطية بانخراطهم فى فصل كبير وكان عليهم أن يحاولوا الاستذكار فيه . وإنه لمن الصعب للغاية على أى شخص عرف اليسر والراحة فى الاستذكار بالمنزل أن يكيف نفسه لحياة كهذه .

فالازعاج الذى يتسبب فى إحداثه الأولاد الآخرون وقرع الأجراس

المتكرر وقواعد النوم وإطفاء النور كلها أمور تشكل قيودا جنونية على حرية الشخص وتطبيقها على دراسة كل واحد عملية صعبة للغاية .

وكانت القيود على الحياة الاجتماعية مرهقة أيضا: كالقيود على استخدام الدراجات البخارية (فى منطقة تفتقر إلى وسائل المواصلات العامة) وللقاء الصديقات من البنات وللتجول البسيط بالبلدة عندما يحس الشخص بالرغبة فى تغيير الجو المحيط به . وأحس أولاد سويندون أن المدرسة تنظر باحتقار إلى كرة القدم :

« فهناك ثلاثون ملعبا للرجبى ، وملعب واحد لكرة القدم ... إنهم يعتبرون كرة القدم لعبة لا تليق » : كم من رجال المدارس « الخاصة » بدأوا يدركون مدى أهمية طقوس كرة القدم فى أيام السبت بعد الظهر بالنسبة لحياة ملايين الناس فى انجلترا ؟ ثم كان هناك الحرمان من مكانة اجتماعية كان أولاد سويندون يعتبرونها حقا مشروعا لهم فلو أنهم ظلوا بمدارسهم المحلية لأصبحوا فى السنة الأولى من الصف السادس ، وأصبحوا الآن مهمين يتمتعون بقدر كبير من الحرية . ولكنهم فى مارلبورو فى الصف السادس مطلقا فى أول سنة من التحاقهم بها . والواقع أننا علمنا أن ثلاثة فقط من بين الواحد والعشرين هم وحدهم الذين وصلوا إلى مرتبة الصف السادس . وجدوا أنفسهم تحت سلطة أولاد من نفس عمرهم أو حتى أصغر منهم . وإلى جانب هذا بدا لهم الكثير مما ينظر إليه طلبة مارلبورو الأصليون بجدية كالعمل من أجل الأسرة « أو الهتاف للأسرة » عملا صبيانياً (١)

وازداد الموقف خطورة بسبب صدام آخر بين اتجاهات مختلفة تماما ، وهو فى هذه المرة صدام حول طبيعة السلطة بالمدرسة . ففى معظم مدارس الدولة حاليا يضطلع الألفوات أو العرفاء Prefects بوظائف إدارية صغيرة

(1) cf. the Comment by Marget Miles, P. 139 above.

وتستهدف مساعدة هيئة التدريس ، ونادرا ما يحاولون فرض سلطتهم الشخصية على زملائهم . ولكن فى مارلبورو ظهر أن ضباط الأسر يصلون فى أهميتهم إلى أهمية رئيس الأسرة من المدرسين نفسه ويتمتعون بصلاحيات ضخمة بما فى ذلك توقيع عقوبة الضرب على زملائهم . ولقد أخذوا مسئولياتهم بجدية بحيث بدا ذلك مثيراً للسخرية فى نظر أولاد سويندون . وفيما يلى اقتباس ذكره لامبرت Lambert من مدرسة أخرى ولكنه يبدو منطبقا هنا :

« قال واحد منهم : لم أكن سعيداً بالطريقة التى كانت تمتهن بها شخصيات الأفراد على أيدى «العرفاء» فيما بين السابعة عشرة والثامنة عشرة، وقد ظهر من تصرفاتهم أنهم لم يكونوا إلا على خبرة محدودة جداً بالإنسانية التى يحكمون على غيرهم باسمها (١) ».

وثمة عدد قليل من أولاد سويندون لم يستطيعوا قبول سلطة تبدت لهم أنها غير معقولة على الإطلاق ، فتحدوها عدة مرات بخشونة لم تؤد إلا إلى زيادة اغتراب أولاد مارلبوروا عنهم. وثمة عدد قليل آخر عمدوا إلى تجاهل قواعد السلوك وأصروا على كذبهم خلال استجوابهم . وأحدهم وعمره سبع عشرة سنة عوقب بالضرب فى نهاية الأمر .

وكانت هناك جوانب أخرى لا طعم لها مثل الدين الاجبارى والمباريات الاجبارية (وحتى أولئك الذين كانوا ولوعين بالمباريات وجدوا أن الوقت والأهمية المخصصين زائدان عن الحد) . وحتى ما كان يوحى بشىء من العظمة كان من الأمور التى تبعث على الضيق ، مثل ارتداء الزى الكامل أثناء الوجبات الرسمية وطريقة معاملة الخدم . وعندما كان أحد أولاد سويندون يخاطب أحد خدام المعهد بأدب بقوله « السيد » ، ينبرى

(1) op. Cit., Paper One, p 41.

أحد طلبة مارلبورو ليصححه . وكما ورد فى البحث الجماعى فان « غالبيتهم كانوا يجدون أن الحديث المتصل بالجنسية المثلية والحياة الداخلية بالمدرسة مما يثير اشمئزازهم » ، ويجب أن نذكر أن مارلبورو قد أسست أصلا لأبناء رجال الدين .

كل هذا ربما كان يستحق العناء المبذول فى سبيله لو أنه تحقق لأولاد سويندون توقعاتهم الأكاديمية . ولكن هنا أيضاً كانت خيبة أمل . فهم لم يدركوا أنه مع بقاء كل التلاميذ تقريباً حتى سن الثامنة عشرة فإن فصول المستوى المتقدم كانت كبيرة فى حجم تلك الفصول بالمدارس الأكاديمية إن لم يزد عنها . ولاشك أن التوترات الشديدة الأخرى التى كانوا يمرون بها قد أعاقت التركيز . وقد يكون أيضا كثرة المناشط المتاحة الزائدة عن المنهج التى بدأوا الاشتراك فيها تدريجياً كالموسيقى والرسم مما ساعد أيضا على تشتيت أذهانهم .

ومهما كانت الأسباب فان نتائج المستوى المتقدم لأولاد سويندون وإن لم تكن متدهورة جدا كانت مخيبة للأمل . فلقد جاءت نتائجهم أقل من نتائج المجموعة التى قورنوا بها من طلبة مارلبورو سواء فى الكم أم فى الكيف ، ويبدو أنه كان من المحتمل وصولهم على الأقل إلى نفس المستوى لو أنهم ظلوا بإحدى المدارس الأكاديمية فكانوا إذن قد قضوا وقتاً أسعد بالإضافة إلى ذلك .

على أن هذا الملخص الموجز لا يمكن أن يفى بحق البحث الممتاز الذى ينبغى أن يقرأه جميع المدرسين ورجال الإدارة التعليمية وجميع الآباء والسياسيين حتى الذين لديهم أقل اهتمام بالتربية ، ولكنه ربما يكون قد قلل من التأكيد على نقطة واحدة مع أنه لم يتجاهلها ، هى صعوبة تكامل الملتحقين الجدد فى سن السادسة عشرة حتى فى مجتمع قائم ترعرع فيه جميع

التلاميذ الآخرين منذ كانوا فى الثالثة عشرة. وهذه الصعوبة قائمة حتى فى ظل النظام التعليمى الحكومى . ان الملتحقين الجدد يكونون دائما عرضة للنبذ لاسيما أن عمرهم وجسمهم يتطلب سرعة أخذهما فى الاعتبار من جانب الآخرين : فهم صالحون لأن يكونوا فى مواقع السلطة والتمتع بالامتيازات (كما كان حال أولاد سويندون فى مارلبورو) ومن ثم كان الأولاد الأصغر منهم ينظرون اليهم بغيرة وحسد الذين « انتموا » للمدرسة من قبلهم بسنين عديدة ، وليس من السهل أيضا فى أية مدرسة غريبة أن يتكيف الشخص بسرعة للانماط المختلفة من السلطة والعادات والتدريس والتعلم .

ويذكر التقرير الكثير لصالح مارلبورو ، فيشير إلى أنه بقدوم السنة الثانية صار أحد أولاد سويندون محررا لمجلة المدرسة . بينما كان ولد آخر يمثل المدرسة فى لعبة الرجبى ، وثالث كان رئيساً لفريق ألعاب القوى ، ورابع كان رساما ناجحا ، ويذكر أيضا أن ثمانية أولاد من الواحد والعشرين صاروا عرفاء بالأسر وثلاثة منهم رؤساء لأسرهم .

إن عملية التكامل بالتأكيد كانت تتم بسهولة بأكثر للمدرسة (رغم أن ذلك ليس بالضرورة بالنسبة للأولاد) لو أنها كانت قد اختصت بأولاد الثالثة عشرة بدلا من أولاد السادسة عشرة . ذلك أن أولاد الفئة الأولى كانوا إذن يتحملون ما يلقونه بصمت أكثر ويتوافقون باستعداد اكثر ، ولكن التحدى الذى فرضته المجموعة الأخرى بما تهيأ لأفرادها النضج والقوة كان أقوى بكثير مما تستطيعه المجموعة الأولى ، ولا شك أن تقرير (لامبرت — ستاج) قد درسه بعناية كل مدرس بمارلبورو وكثير من الأولاد الكبار أيضا . فاذا ما أدى (كما نأمل) إلى التصميم على بناء الاصلاح على أساس هذه الخبرة وعلى إدراك أن الخطوات التالية يجب أن تكون جذرية ، فان هذا المشروع الجرىء سيكون إذن جديرا بالعناية .

وثمة استنتاجان أساسيان يمكن أن يستخلصا من خبرة مارلبورو .
أولا : كما يذكر لامبرت ببساطة أنه إذا كان لابد من عمل محاولة لتحقيق التكامل على نطاق واسع ، فان الحياة المدرسية بالمدارس الخاصة مكروهة لا تجد قبولا من جانب قطاع كبير من المراهقين من بيوت الطبقة الدنيا الوسطى والطبقة العاملة الذين ألفوا المدارس المحلية .

ثانياً : فى ضوء المعلومات السيكلوجية والاجتماعية الحديثة تصبح النوعية التربوية الخاصة بالكثير مما يحتل المركز فى حياة المدرسة «الخاصة» محل إعادة نظر كثير . أفليس من واجب الدولة قبل أن تسمح بدخول الأطفال نظام التعليم الحكومى بل وواجب دافعى المصروفات المدرسية انفسهم أن تطالب هذه المدارس الخاصة بادخال تغيرات أساسية على ما يجد فيه أكثر المربين دربة أساساً غير متين للاعداد للحياة ؟ إن أكبر نصيب من المسئولية لمجابهة هذا الموقف المحير يقع على الحكومة لأن المدارس «الخاصة» ما تزال تستقبل أطفالها من قادة المجتمع بصفة رئيسية ، ولأنها ما تزال ترى أن واجبها بصفة رئيسية هو تربية قادة المستقبل ، وما تزال تضطلع بهذه الوظيفة . ويبدو أكيداً أن الخطوة الأساسية الأولى فى التكامل إنما تكون بالقيام بتبادل واسع النطاق بين مدرسى مدارس الحكومة وبين مدرسى المدارس الخاصة . ويمكن تحقيق هذا التكامل بسرعة وفعالية أكثر من وضع عدد كبير من تلاميذ البيئات المحلية فى ظل نظام عتيق Ancien régime للممارسة التربوية .

إن الموقف الراهن هو تحد قائم لجميع المؤمنين بأن حاجتنا الرئيسية هى إلى التربية من أجل الديموقراطية بما تتضمنه من احترام دقيق للآمال والمخاوف والميزات الخاصة ، مع جعل الأولوية والأهمية لتربية أناس

آمنين وسعداء . وعلى هذا يجب على المدارس الخاصة أن تغير أو تتغير . إن لدى هذه المدارس ما يمكنها أن تقدمه من النتائج الحسنة إذا ما حملت على السير فى التيار الرئيسى للحياة التربوية للأمة . ويبدو أن أسرع الطرق وأنجعها لعمل ذلك هو القيام بدمج المدرسين أولا وليس الأطفال .

ولسوف أتناول المعانى التى يتضمنها هذا الاتجاه فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .